

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَاطَتِ بِمَا لَمْ تُحَطِّ بِهِ
وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَبِ بَنَابِيقِينَ ٦٦



ليس خافياً على القارئ الكريم ما أوتيه نبي الله سليمان بن داود من الملك العظيم ودعائمه، فقد بين الله تعالى في كتابه شيئاً من ذلك، فقال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحْهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزْغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذْقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ} [سبأ: 12، 13]، وهذا الملك إنما هو دعوته عليه السلام التي استجابها الله له: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ} ٣٥ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ وَآخَرِينَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَابِ} [ص: 35 - 40].

وفي تفسيره لقوله تعالى: {وَوَرَثَ سُلَيْمَانُ دَاؤَدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [النمل: 16، 17] قال الشوكاني: «{وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} كل شيء تدعو إليه الحاجة كالعلم والنبوة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض» [1].

وقال ابن كثير: «وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [النمل: 16] أي: مما يحتاج إليه الملك. {وَحُشِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [النمل: 17] يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإنْ كان حرُّ أظلته منه بأجنتهها» [2].

غاب أحد هؤلاء الجنود، ولم يكن موجوداً حين طلبه نبي الله سليمان، إنه الجندي المهدد. قال ابن عباس: «كان المهدد مهندساً، يدلُّ سليمان على الماء، إذا كان بأرض فلادة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بُعدِه من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجانَّ حفروا له ذلك

المكان، حتى يستتبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدد فلم يره، فقال: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأَعْذِنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [النمل: 20، 21].

لم يلبث الهدد كثيراً، فقد جاء بعد غياب يسير: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحْطَطْتُ بِمَا لَمْ تُحْطِ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَيِّئَاتِ بَنَائِكَ يَقِينًا إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَأَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَّقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَانِيْنَ اذْهَبْ بِكَتَابِي هَذَا فَأَلْفِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} [النمل: 22 – 82].

المبادرات الفردية:

أبرز دروس قصة الهدد التي قصها الله تعالى في كتابه هو «روح المسؤولية الفردية»، التي ينبغي أن يتحلى بها الفرد في الوقت الذي ينتمي فيه إلى جماعة دعوية، تلك الروح التي يشعر فيها الفرد - وهو ضمن جماعة - أنَّ عليه مسؤولية كبيرة في تحقيق أهداف الجماعة وفكرتها، مهما كان موقعه في هذه الجماعة، ومهما كان حجمه فيها، ومهما كانت وظائفه المنوطة به فيها.

إذا كان القرآن قد قصَّ علينا بعض مبادرات الأقوياء في مملكة سليمان كما في قوله تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِزِيزٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيَكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: 38–40] فإننا الآن بصدق مبادرة لم تصدر من كائن قوي، كالجن والإنس والوحش والسباع، بل نحن بصدق مبادرة صادرة من كائن ضعيف، من طير ضعيف، من الهدد.

إن مبادرات الأفراد تنبع عن حجم الاهتمام وروح المسؤولية، وليس مرتبطة بالقدرة والعجز، ولا بالقوة والضعف.

وأعجب من ذلك أنها لا ترتبط بالتخصص و المجال الوظيفة، فالهدد كان يعمل في استكشاف موقع المياه، ولم يكن من مهامه شؤون المالك، ولذلك فقد سليمان عليه السلام في وقتٍ كان ينبغي أن يكون موجوداً فيه، لكنه يحمل همَّ الفكرة وهي الدعوة إلى التوحيد، تلك الفكرة التي سخر لها سليمان عليه السلام كل مملكته، برغم التخصصات المتنوعة داخل هذه المنظومة.

ولك أن تتخيل مؤسسةً دعويةً يحمل مجموع أفرادها همَّ الفكر والأهداف - وليس بالضرورة كل فرد فيها - كيف ستكون هذه المؤسسة في تحقيق أهدافها؟ وكم هو الزمن الذي تحتاجه لإنجاز المشاريع والأعمال؟

هدَدْ كَانَ سَبِّاً فِي دُخُولِ مَمْلَكَةِ كَامِلَةٍ وَعَظِيمَةٍ فِي دِينِ اللَّهِ!

هل تعلم - أيها القارئ الكريم - ماذا تعني مملكة سب؟

قال قتادة: «كان أولو مشورة المملكة ثلاثة واثني عشر رجلاً، كلُّ رجلٍ منهم على عشرة آلاف رجل»[4]. غير ما وصفه الهدد بقوله: {إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل: 23].

إننا بحاجة إلى الروح الهدادية في نفوس العاملين والأعضاء، فكم ستخترق المسافات والأوقات في تحقيق الأهداف وبلغ الطموحات، وكم سيفتح الله بها نوافذ وآفاقاً جديدة للعمل.

عن أبي سعيد الخدري قال: «جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! نهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمونا مما علمك الله. فقال: (اجتمعنَ في يوم كذا وكذا، في مكان كذا وكذا). فاجتمعنَ فأتاهمَ رسول الله صلی الله علیه وسلم فعلمهنَ مما علمه الله»^[5]. قال ابن حجر عن المرأة التي بادرت بهذا المقترن: «لم أقف على اسمها، ويحتمل أن تكون هي أسماء بنت يزيد بن السكن»^[6]..

تأمل هذه المبادرة الصادرة من امرأة لم تُعرف على وجه الحقيقة عند أهل الحديث من تكون! كيف استطاعت أنْ تفتح نافذة جديدة و مهمة في التعليم الشرعي، ونفع الله بهذه المبادرة فتعلمت النساء من رسول الله صلی الله علیه وسلم مباشرة وباهتمام خاص بهن.

وفي معركة اليمامة، وهي معركة الإسلام الكبرى في حروب الردة، وحينما تحصن أهل اليمامة في حديقة الموت، وقد صعب على المسلمين اقتحامها.. حينها لمعت فكرةً في رأس البراء بن مالك رضي الله عنه فقال لأصحابه: «يا معاشر المسلمين! ألقوني عليهم في الحديقة» فاحتملوه فوق الجُحُف [وهي الترسوس] ورفعوها بالرماح، حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها، يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله^[7]..

فكرة البراء بن مالك رضي الله عنه هذه لم تصدر من توجيهات القيادة، وليس هي أمراً متفقاً عليه من قبل، وإنما وجد البراء بن مالك رضي الله عنه في نفسه قدرة على إحداث عمل يفتح الله به على المسلمين؛ فعل ذلك، ففتح الله بفعله هذا على المسلمين حديقة الموت، ثم حصل الظفر.

الجندية والإبداع:

إحدى أكبر الإشكاليات التي يعاني منها العمل الإسلامي هي وجود تعارض في ذهن الفرد بين الجندية والإبداع، أو قُلْ: بين الروح الجماعية وبين الروح الابتكارية، أو قُلْ: بين العمل الصحيح لتحقيق الأهداف (الكفاءة) والمبادرة المقترنة بتحويل مسار الإجراءات والأنشطة.. سمعها ما شئت!

ومفاد هذه الإشكالية هو أنَّ الانتماء إلى مجموعةٍ عملٍ ما يعني الالتزام الحرفي بالخطط الإجرائية والتوجيهات الإدارية بنسبةٍ مئويةٍ كاملة، وأنَّ الاجتهد الشخصي الخارج عن خط التوجيه وجدال التخطيط خطأ يضرُّ بمنظومة العمل وأهدافها ويوشر إلى النزعة الفردية ذات الأهداف الخاصة.

هذه الإشكالية الذهنية حولَت الكثرين من الأفراد إلى مجرد آلاتٍ تعمل وفق ما يُرسم لها من خطط ونشاطات من قبل الإدارات فقط، ولم تسمح لهم بالإبداع ولا بالابتكار، فأصبحوا مرتهنين للخطط الإجرائية، مرتهنين لتوجيه القيادة، مرتهنين للمناخ السائد.

الإبداع والخروج عن المألوف والابتكار أمورٌ قد يتطلبهما واقع العمل في مؤسسات الدعوة، لظروفٍ تدعو إلى ذلك، ربما لما يستحدث من شرائح جديدة من المستهدفين والمستفيدين، أو ربما لـتغْيير ثقافي طرأ على المستهدفين والمستفيدين، أو ربما للتحولات الاجتماعية والاقتصادية الناشئة في المجتمع المحيط.. المسبيبات أكثر من أن تحصر والمهم هنا هو الحاجة في ظرف ما إلى الابتكار والإبداع وإلى تغيير الطاقة الفردية.

فإذا كان الأفراد (الجنود) يعتقدون أنهم غير مطالبين بتغيير طرائق التفكير، وغير مطالبين بإيجاد منفذٍ جديدة لتحقيق الغايات الكبرى، بناء على أن القيادات هي المسؤولة عن هذا النوع من التفكير وأنها هي المسؤولة عن رسم خريطة العمل

لكل فرد، وأن محاولات الأفراد الإبداعية إنما هي قفز إلى مقر القيادة ومحاولة للتمرد على المنظومة.. إذا كان الأفراد يعتقدون ذلك فهذا خلل في البناء التربوي لديهم، وتشوّه في مفاهيم العمل والحركة، فالقرآن الكريم يربّي المسلم على أن يكون إيجابياً مبادراً متحملاً للمسؤولية حتى وهو في جماعة ونظام وتحت قيادة.

السلبية من أشد الأمراض التي تعاني منها مؤسسات الدعوة: أن يظل العاملون -وهم في عنوان شبابهم وزهرة أعمارهم- تتحمّلُ أيديهم في انتظار التوجيهات العليا من قيادات المؤسسة.

لقد كانت الجنديّة تحت قيادة محمد صلّى الله عليه وسلم تستنفر كل الطاقات الفردية، وتحفز الإبداع والتفكير لدى الأفراد، بغضّ النظر عن مواقعهم. قال ابن إسحاق: «حدثت عن رجال من بنى سلمة، أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموج قال: يا رسول الله!رأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة؟ قال صلّى الله عليه وسلم: (بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة) فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى يأتي أدنى ماء من القوم، فتنزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنمليه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : (لقد أشرت بالرأي). فنهض رسول الله صلّى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب ففورت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه...»[8].

هذا الحباب بن المنذر، إنه ليس من وزراء النبي صلّى الله عليه وسلم ولا هو من العشرة المبشرين، ولا هو من سادات المهاجرين.. ليس شرطاً أن يكون لديه مؤهلاً لإبداء رأي أو انتقاد خطة أو اقتراح فكرة. لم يستدلّ أحدٌ بهذا الاقتراح على خروجه من المنظومة، أو تمرده على السلطة، برغم صراحة الفكرة: «إإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى يأتي أدنى ماء من القوم».

إن العاملين في مؤسسات الدعوة ينبغي أن يتشربوا هذا المفهوم، وأن يفكوا الارتباط الذهني بين الجنديّة والجمود، وأن يدركوا أن الإبداع لا يعني التمرد، وأن الانتماء مؤهل كافٍ للإبداع والابتكار والمبادرات المتفردة.

القيادة ومساحات الحرية:

في الواقع الأمر إنَّ هذه الإشكالية ليست على مستوى الأفراد في مؤسسات الدعوة، بل طالت شريحةً من الإدارات والقيادات لم تتمكن من استيعاب مفهوم «الإبداع لا يعني التمرد»، فهي لا تحب تحويل مسارات العمل، وتكره الابتكار، وتقاوم التجديد.

ثمة أسباب تجعل هذه القيادات ترفض فكرة التجديد والتحويل، ولا تقبل مبادرات الأفراد، لعلَّ منها الخوف من تغيير النمط السلوكي لهذه القيادات في مؤسسات الدعوة، حيث ألغت نمطاً معيناً وعادات محددة، وأصبح لديها أشبه ما يكون بالعلاقة العاطفية مع جو المؤسسة يجعلها تناضل دون تغييره، ولربما أصبحت تستند بهذا الواقع، وتجد فيه أنسها وراحتها النفسية؛ فالالتغير في هذه الظروف هو انكasaة بالنسبة إليها.

ومن الأسباب أيضاً تأثير الفكر الصوفي المتغلغل في أعماق المجتمعات الإسلامية، والذي يغرس في النفوس السلبية المقيمة في نفوس الأفراد تجاه المشايخ، ويرفع من شأنها، ويحدث على التنشـلـ من المسؤوليات لتصبح في مجموعها منوطـة بشخصية القائد (الشيخ)، ويعتنق الجبر في مسألة القدر، ولسان حاله يقول:

دع المقاصير تجري في أعنـتها *** ولا تبيـنَ إلا خالي الـبال

ومن سلبيات الفكر الصوفي أن يجعلك تصنف الإخفاقات في قائمة المصائب، بينما لا يوجد شيء لديه اسمه المعائب.

ومن الأسباب كذلك: الارتباط الذهني بين مبادرات الأفراد والتمرد على السلطة، فالفرد حين يحاول التغيير، وحين يبادر بمنأى عن القيادة -في نظر هؤلاء- فهو خارج عن عباءة الجماعة، متفرد بالتفكير، تنقصه الروح الجماعية كما تنقصه الروح الجنديّة.

من أهم الأمور التي ينبغي أن تؤمن بها قيادات المؤسسات الدعوية: أهمية توفير هامش لحرية الأفراد ضمن الإطار العام للمؤسسة.. هذه المساحة من الحرية هي التي تظهر من خلالها شخصية الفرد فيصبح له كيان و اختيار داخل منظومة العمل، وهي التي من خلالها تُصلَّى مواهبه، وهي التي من خلالها تعالج إشكالاته التربوية والعملية، وهي التي من خلالها يقوم بدوره الحقيقي في تطوير العمل والمؤسسة.

أما إنْ عجزت القيادة.. لا أقول: عن توفير هامش الحرية للأفراد، بل إنْ عجزت عن استيعاب طاقاتهم وقدراتهم وطموحاتهم فعليها أنْ تغضِّنَ الطرف عما لم تستطع إليه سبيلاً من عملٍ فرديٍّ، في أقل الأحوال. والحكمة تقتضي تشجيع هذه الطاقات وتحفيزها واحتواها، والرضا بها، والشعور بأنها تتم في المسار الطبيعي لا المسار الشاذ المتفرد.

إنَّ وجود هذا النوع من الأفراد يقتضي أنْ تعامل معه - كقائد - من منظورين: كونه واقعاً وكونه فرصة. أيها القائد! أجعل من تفرد الطاقات نواخذة جديدة في مسارات العمل؛ تأمِّل قول سليمان عليه السلام: {فَالَّذِينَ اذْهَبُوا إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} [النمل: 27، 28]، لم يغلق سليمان عليه السلام ملف المبادرة المترفة والإبداعية والتي هي ليست من تخصص الدهد، لم يفعل ذلك! فهذه المبادرة ربما تفتح أفقاً جديداً في العمل، وربما يكون هذا المسار الجديد الذي جاء به هدف ضعيف أفضل من بعض مسارات العمل المألوفة والمتافق عليها بين القيادات.. ربما يختصر المسافات إذا استثمر بشكل جيد.

القيادات الوعائية بمنأى عن الاستبداد، قادرة على توسيع قاعدة العمل، قادرة على تحمل الجميع المسؤولية الحقيقية عن العمل.. في هذه الحال سيكون جميع الأفراد مسؤولين عن المؤسسة، لا فرق بينهم وبين القيادات والإدارات والمستشارين، وفي الوقت ذاته سيكونون قادرين على تحمل تبعات هذه المسؤولية، إنهم نعم العون على تحقيق الأهداف، وهم الأقدر على النهوض بهذه المؤسسة.

تأمل الدوافع التي جعلت الهدد يطير المسافات الطويلة ويراقب الممالك العظيمة وهو مشغول البال بنشر التوحيد مهموم بالقضاء على الشرك!

وفي مجلسِ الأصحابِ النبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَ يَكُنْ هُوَ مَعْهُمْ حِينَهَا، وَهُمْ بَعْدِ فِي مَكَةَ فِي حَالٍ مِنَ الْفَسَادِ، طُرِحَ هَذَا السُّؤَالُ: وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَرِيبِيَّشَ هَذَا الْقُرْآنَ يُجَهِّرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يَسْمَعُهُمْ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا. قَالُوا: إِنَّا نَخَافُهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نَرِيدُ رَجُلًا لِهِ عِشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنَّ أَرَادُوهُ. قَالَ: دُعُونِي، إِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي. فَغَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الْأَضْحَى، وَقَرِيبِيَّشُ فِي أَنْدِيَتِهَا، حَتَّى قَامَ عَنِ الْمَقَامِ ثُمَّ قَرأَ سُورَةَ الرَّحْمَنَ. فَقَالَتْ قَرِيبِيَّشُ: إِنَّهُ لِيَتَلَوُ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ. فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ.

قال: ما كان أعداء الله أهون علىٰ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلاها غداً. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتم ما يكرهون[9].

في الواقع لم يكن ابن مسعود رضي الله عنه ذا عشيرة تمنعه في مكة؛ فهو هذلي، كما كان ضعيف الجسم، ولكنه فرد يرى مسؤوليته تجاه نصرة الإسلام ورفع حالة الضعف والاستسراط التي كان الجميع يعيشها، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يترتب على هذه المبادرة التي لم تكن ضمن توجيهاته، ويتيح المجال أمام الجميع لعمل ما يمكن عمله لتحقيق ذلك الهدف، وهو رفع حالة الضعف والاستسراط، إلا الخطوط الحمراء التي تعتبر كارثة على أهل الدعوة، مثل التوجيه بـكـفـ الـيدـ عنـ مقابلـةـ الأـدـىـ، وـنـحـوـهـ مـاـ يـعـتـرـعـ تـعـدـيـاـ صـارـخـاـ لـإـسـتـراتـيـجيـاتـ الـكـبـرـ.

الاستبداد الدعوي والمستقبل:

في قوله تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا رَأَى الْهَدْهُدُ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَا عَدِبَنَةَ أَوْ لَا بَحْنَةَ أَوْ لَا يَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [النمل: 20، 21] ما يشير إلى التعامل مع الأفراد، من تقادهم ومحاسبتهم والحرام في الحفاظ على انتظام الأمور، لكن الحوار الذي جرى بين سليمان والهدود يشير إلى هامش الحرية المطلوبة، وتقييم القيادة لها تقريباً موضوعياً غير قابل للانطباعات: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَانِيْنَ أَذْهَبَ بِكَتَابِيْ هَذَا فَأَكْلَفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} [النمل: 27، 28]. هذه أركان التعامل مع المبادرين المتفردين: وسطٌ بين طرفٍ نقيس، فلا الكبت وإغلاق الملفات، ولا التسيب والفووضى، إنما هي الحقائق والمعلومات، والمبررات والتفسيرات، والتجربة العملية تصدق ذلك أو تکذبه، ومن خلالها يتم الحكم على المبادرات.

إن سياسة الأبواب الموصدة والنواخذ المغلقة استبدادٌ وسيكون له من الآثار السلبية المستقبلية على الأفراد والمؤسسات ما يجعلها في مصاف الضعفاء.

فمن آثار هذه السياسة: تحويل الأفراد الأقوياء أصحاب المبادرات والمشاريع من نقطة قوة لصالح المؤسسة إلى مصدر تهديدٍ إليها، ذلك أن هؤلاء الأفراد لا تقوى نفوسيهم على البقاء في مؤسسات لا تعترف بقدراتهم، وسيضطرون للخروج منها مكرهين، وهذا بحد ذاته أمر ملفت للانتباه والملاحظة، وفي وقتٍ ما ستتجدد المؤسسة أنه لم يتبق لها سوى الضعفاء وغير القادرين.

ومن الآثار كذلك وهو أشد خطراً: تنشئة الأجيال القادمة في التربية والعمل على سنة الجمود الفكري والحركة الآلية ذات التحكم والسيطرة، تماماً كما هو الحال عند الطرق الصوفية. ولا يكتشف خطر هذا الأمر إلا حين تنزل النوازل في المجتمع وتطرق المستجدات أبواب العصر، فلا يستطيعون إيجاد فقهٍ للتعامل معها. ونحن اليوم نعيش بطأً شديداً في معالجة النوازل والمستجدات والتعامل معها، وما هذا إلا نتيجة طبيعية لـتربية لا تستوعب أحياناً - الطاقات الفردية والتزعيات المتفردة، وتعتمد بشكل كامل على التوجيه الإداري.

وحين تقرأ سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، وكيف استطاعوا مواكبة المتغيرات الناشئة عن تقدم الزمان، والناشئة عن فتح الأمصار المختلفة في حضارتها، وما يتبعه من تعايش مع أمم أخرى وملل مخالفة، وما يتبعه من تعايش مع أنماط مختلفة من الثقافات والحضارات والأعراق، مع الحفاظ على الإستراتيجيات الكبرى ووحدة الأهداف وهوية الدعوة.. حين تقرأ كل ذلك يجللك الانبهار بال التربية النبوية التي صنعت من كل فرد مسؤولاً عن العمل لهذا الدين.

الطاقة الفذة في المؤسسات:

مؤسسات اليوم تحمل بين أروقتها طاقات فذة ذات طموح وتطلعات، طاقات قادرة وهاجة، تنظر إلى المؤسسة التي تنتهي

إليها بعين الاهتمام وتعيش أهدافها بروح المسؤولية، طاقات شابة واعدة ذات دم حار وفكر عصري وقاد، تعيش زمن الانفتاح ولديها خبرة جيدة في التعامل معه، ومعالجة مشكلاته، ومعرفة ثغراته ومواضع الفرص فيه، في مجتمع جديد له ثقافته وطرائقه ونمائه.

هذه الطاقات الفذة لا تستطيع أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام واقعها وتحدياتها، وأمام مؤسساتها وأهدافها، وهي في الوقت نفسه لديها المقومات الكافية لأن تقول لقيادتها بأدب وحكمة: أحاطت بما لم تحط به! ستدعى - وحق لها - أن لديها ما ليس لدى قياداتها من العلم والرأي والتجربة الجديدة، وستطالب بإتاحة الفرصة لها ودعمها والوقوف معها لثبت نجاح تجربتها الإبداعية الجديدة، والتي لم تخرج عن إطار التنظيم.

قال البعوي في قوله تعالى: {أَحَاطَتْ بِمَا لَمْ تُحْطِبْ يَه}: «الإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته». يقول: علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغه أنت ولا جنودك»[10]، وقال ابن جرير: «لأن سليمان كان لا يرى أنَّ في الأرض أحداً له مملكة معه، وكان مع ذلك صلى الله عليه وسلم رجلاً حُبِّبَ إليه الجهاد والغزو، فلما دله الهدد على ملك دله بموضع من الأرض هو لغيره، وقوم كفراً يبعدون غير الله، له في جهادهم وغزوهما الأجر الجزييل، والثواب العظيم في الآجل، وضمَّ مملكته لغيره إلى ملكه، حقت للهدد المعذرة، وصحَّتْ له الحجة في مغيبه عن سليمان»[11].

ولئن كنا نطالب الأفراد بأن يتخلوا بهذه الروح الهدادية، فإننا نطالب القيادات أيضاً بأن يتخلوا بالروح السليمانية المتاحة للخروج عن النص دون تسبيب، والتي تحاسب وتعاقب وفي الوقت ذاته تنظر للمبررات بعين الاهتمام، وتقيم المبادرات بموضوعية، وتدعم التجارب الجديدة والأفكار الخلاقة في سبيل الارتقاء بالعمل.

إن التفرد والإبداع لم يجعل سليمان عليه السلام يحكم على الهدد بالتمرد، وكذلك ينبغي للقيادات. والقيادة الفذة هي القادره على احتواء ودعم وتوجيه الطاقات الفذة، أما القيادة الضعيفة فإنها تعتبر القيادة الفذة مصدر ريبة وقلق، وستحاول أن تروضها، وتحشرها في عباءتها، وإلا فلا مناص من الإبعاد! وهذا خلاف التربية القرآنية، وخلاف التربية النبوية.

لقد حافظ القرآن الكريم على القيمة المعرفية لتفوق الهدد على سليمان في جانب محدٍ حين قال: «أَحَاطَتْ بما لم تحط به». للتدليل على إمكانية تكرر تفوق الفرد على القيادة في جانب ما، وأنه لا يعيي القيادة بأي حال؛ إنما يعييها إنكار هذا التفوق أو التعامل معه بصفته تمرداً لا يليق بإطار المؤسسة. للتدليل أيضاً على وجوب استثمار التفوقات الموجودة في ثنايا التنظيم، والتي من خلالها يرتقي هذا التنظيم. وتأمل كيف أن سليمان عليه السلام يتجه بجنوده من الطير والإنس والجن في دعم مبادرة الهدد، ذلك الطائر الصغير الضعيف.

وأول إجراء يمكن اتخاذه للاستفادة من هذه التربية القرآنية تجاه الطاقات الفذة والمبادرات المترفة هو تربية الأجيال على المحاولة والإبداع والابتكار وتحمل مسؤولية الانتماء وتنمية أنماط التفكير.. تربية حقيقة، وليس فقط شعارات مجردة من الواقع العملي والأنشطة المصاحبة، تربية تحمل المؤسسات على احتواء الأفكار الجديدة والتجارب غير المألوفة والصبر على ما يترتب عليها من أخطاء.

إنها رسالة إلى الشباب والعاملين: لا يفوقنكم هدد ضعيف، ورسالة أخرى إلى القيادات: احموا مؤسساتكم من تسرب الطاقات.

[3] تفسير ابن كثير 6/185.

[4] تفسير ابن كثير 6/187.

[5] البخاري 4/366 كتاب الاعتصام بالسنة، باب تعليم النبي أمهه من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل، ح 7310، ومسلم 4/2028 كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، ح 2633.

[6] فتح الباري 13/306.

[7] البداية والنهاية 6/318، سير أعلام النبلاء 1/196.

[8] السيرة النبوية لابن هشام 2/232.

[9] انظر السيرة النبوية لابن هشام 1/351.

[10] معالم التنزيل 3/394.

[11] تفسير الطبرى 11/148.

مجلة البيان العدد 344

المصادر: